إبراهيم وبناء شخصية الإنسان

«٢»

هذا الإنسان الذي كرمه اللَّه وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً؛ حين يعرض عن الحق ويهمل العقل الذي أكرمه اللَّه به، ويرضى لنفسه الهبوط إلى ما دون ذلك: يرتد إلى ما هو أشبه بالمسخ في تفكيره، ونظره إلى الأمور، كائناً ما كان شأنها في عاجله وآجله.

أرأيت إلى قوم إبراهيم عليه السلام، بعد أن فجأهم بالحقيقة آخر المطاف، وبيّن لهم بالحجة الدامغة، أنهم في عبادتهم للأصنام في ضلال مبين، على شاكلة آبائهم الذين ـ بما هم عليه من ذلك ـ في ضلال مبين أيضاً؛ لما أنهم يتدحرجون ـ بعماية ـ على هذه الطريق المنكوسة والعياذ باللَّه!!

ثم: ألم تر إلى ما كان منهم؟ لقد كان منهم أن استنكروا ما قاله ـ عليه السلام ـ وسألوه سؤال استنكار محذرين منذرين: ﴿أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ وذلك ماجاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾[الأنبياء: ٤٥-٥٥].

هكذا يجادلونه بهذا العبث في إهمال لأبسط قواعد الحوار، وما يقضي به العقل السليم من النظر في كلام المخالف واحترام الدليل.

نعم ألا تستوقفك هذه الكلمات من قولهم: إن هذا ثمرة الخضوع لتزيينات الشيطان، وما يزخرف من العبودية للهوى وتقليد الآباء والأجداد بلا نظر أو تمحيص.

سبحان اللَّه! يكلمهم الناصح الأمين من أرفع مستوى في قضية أصيلة من قضايا الإنسان تتعلق بمعتقده، وترتبط أيَّما ارتباط بوجوده وإنسانيته؛ لأنه إذا تخلى عن العبودية لله: فقد تخلى عن حقيقة وجوده الإنساني، وحريته الحقيقية، وناهض

فطرته التي فطره اللّه عليها... يكلمهم ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ من هذا المستوى، فيقابلونه بهذا التساؤل المقيت الذي يجعل الاهتمامات الكبيرة على الصعيد العام، نوعاً من العبث الذي عبروا عنه باللعب، دون شيء من الحياء!!

ونحن نرى في دنيا الواقع اليوم: أن كل أولئك الذين يحلو لهم أن يتشدقوا بالإلحاد والكفر بمن خلقهم وخلق الكائنات كلها، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة: يقعون في شرك العبودية لغيره من الأشخاص، أو النفس، أو المال، أو أي غرض من أغراض الدنيا علا أو سفل! بل قد دخلت هذه العبودية لغير اللّه ـ مع ما يكتنفها مما ذكرنا ـ في صلب تنظيمات منمقة مسؤولة، ولكن تحت عناوين أخرى في ظل مبادئ تنكر وجود اللّه. وهل بعد هذا الضياع للإنسان، وكرامته وحريته من ضياع؟ بل وهل بعد هذا العدوان على أصل الفطرة عنده من عدوان؟!

أما إبراهيم عليه السلام: في تعبير عن البنية الفكرية السليمة، والنظرة الإنسانية التي تصف ـ فعلاً ـ صورة تكريم اللّه للإنسان، والمنهج الذي يضع العقل موضعه ليعمل هو، وينهزم التقليد الأعمى الموروث... أما إبراهيم: فقد نصح لقومه، ووضع الحقيقة المعقولة المقبولة المستندة إلى الدليل الناصع بين أيديهم لو كانوا يعقلون. وقد جاء التعبير عن ذلك كله بقوله جل شأنه: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾[الأنبياء: ٥٦].

ويلاحظ أن خليل الرحمن عليه السلام طرح الحقيقة ـ كما أسلفت ـ مصحوبةً بدليلها؛ بل ربكم المستحق للعبادة الذي لا إله غيره: وهو فاطر السماوات والأرض الذي فطرهن خلقاً سوياً لا عوج فيه ولا أَمْت.

فخالق الكون بما فيه من إنسان وسماوات وأرضين وما حوت من المخلوقات الذي ابتدأ خلقهن، وهو الخالق لجميع الأشياء.. هو ـ سبحانه ـ الجدير بأن يُعبد وتعنو الوجوه لعظمته، وتعفَّر الحياة بالسجود بين يديه.

وانظر إلى اعتزاز المؤمن بربه، وبالحق الذي يدعو إليه؛ يقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي وأنا أشهد أن لا إله غيره ولا ربَّ سواه.

إن كل أولئك الذين أوصدوا دون عقولهم أبواب التدبر، وأغلقوا ـ عامدين ـ منافذ الفهم والتفكر: غير مقبولي الشهادة في مثل هاتيك القضية الكبرى، ولكن مقبول الشهادة: هو الإنسان السويُّ الذي أزال الغشاوة عن عينيه، وترك للفطرة التي فطر اللَّه الناس عليها أن تستجيب وتعمل، وأطلق العنان بدقة وتجرد، فنظر واستقرأ وتدبّر.

من أجل ذلك أعلن إبراهيم في قومه على صورة لا تحتمل اللبس﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

أما بعد: فإن كل ما يدور على أرضنا في العالم الإسلامي، وما يدور في العالم من حولنا مما يتعلق بالمسلمين بشكل مباشر أو غير مباشر: يستدعي بناء الشخصية المتوازنة التي تتحسَّس الواقع من خلال العقيدة ومنهج التفكير السليم، وتنطلق بثبات وطمأنينة في مختلف آفاق العمل البنَّاء؛ لأن الشخصية القلقة التي ضاع صاحبها، وهوت إلى القاع بإعراضه عن العقيدة السليمة عقيدة الفطرة. وإدباره عما يقول به العقل السليم: هو عبء على الأمة ولون من ألوان الركام المؤذي على الطريق.

وإن إبراهيم فيما شهد للحقيقة، وفيما حكم بالضلال على المستهترين بعقولهم، المستهينين بفطرهم: قد رشَّح لمسيرة الإنسان، من يكون الكفء من بني الإنسان.

وإن من إعجاز القرآن: ما أغنى ـ بحمد اللَّه ـ البشرية بتجربة القرون التي عاناها الإنسان، وحُقَّ لأمة غنيت هذا الغناء: أن تنمي فاعليتها الذاتية وتستأنف مسيرة الحق المضيَّع من جديد.

الرسول الشاب.. والبناء
الحوار المجدي.. بين إبراهيم وقومه
«٣»

تساؤلات تطرح نفسها بعد الذي رأينا من إشراقات المعلم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه، لعل من أبرزها: هل كان ما جرى من الحوار بينه وبينهم، وما كان من شجاعته في قولة الحق، واستدلاله بموضوعية فذَّة على ما قال، ومكاشفتهم بما هم عليه من الضلال، صنيع آبائهم في عبادة الأصنام... هل كان ذلك خاتمة المطاف؟

والجواب: لا، لم يكن ذلك خاتمة المطاف؛ بل إن إبراهيم صلوات اللَّه عليه وجد من إصرارهم وعنادهم: ما حمله على أن يُشفع القول بالفعل، ويضيف إلى الحوار والحجة بإثارة العقل ليعمل عمله.. تحطيم تلك الأصنام بالأسلوب الذي يستطيع معه إزاحة لركيزة منكرة من ركائز الشرك في الأرض، ومجاهرة الخالق الحكيم بالعداوة، واتخاذ الأضداد والأنداد.

ولأن عبادة الأصنام عدوان على الإنسان في عقله وإنسانيته وفطرته، وإعلان صارخ بأن الإنسان قد ضلَّ طريقه السويَّ فانتكس أسوأ انتكاس؛ وأنى لمخلوق كهذا: أن يؤدي رسالته في الحياة وهو معطَّل عن العطاء والبناء في عبادته لصنم ـ كثيراً ما يصنعه بيده ـ لا يضر ولا ينفع ولا يغني عنه شيئاً؟!

وهكذا توعَّد إبراهيم بالكيد لأصنام قومه، وأنفذ فيهم وعيده، فجعلهم حطاماً؛ حيث كسَّرها كلها إلا الصنم الكبير فيها. لغرض يعين على نصرة الحق. نقرأ في ذلك قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾[الأنبياء: ٥٧-٥٨].

ذكروا ـ كما يقول ابن كثير ـ أنه بعد أن ترك الصنم الكبير سالماً وضع في يده القدوم، لعل القوم يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار، فكسرها.!!

لقد كانت عقيدة التوحيد، وإزالة ركام الوثنية من طريق الإنسان: أكبر في نفس الخليل إبراهيم من أن يبخل عليها بالثمن ولو كان إزهاق روحه. وهكذا يفعل الكبار الذين يذعن لصنيعهم التاريخ، ويأبى عليهم الإيمان إلا أن يدوروا مع الحق حيث دار مهما كلفهم ذلك من ثمن!!

ولا ننسى أن إبراهيم كان ـ وهو يتحمل عبء الصراع المرير العاتي بين الحق والباطل ـ شاباً في مقتبل العمر، والشباب ريحانة الحياة، ونافذة تطل على زهرة الدنيا بجمالها وما فيها من سحر المتعة والزينة وحب البقاء.. ولكن شيئاً في نفس إبراهيم الشاب كان أكبر من كل ما في الدنيا من زخرف ومتاع! لقد صنع ما صنع بتلك الأوثان وهو يعلم أن من بعض ما قد يجرُّ عليه هذا الإنكار الحازم للمنكر أن تزهق روحه على الطريقة التي يشاؤها الهوى لأولئك الطغام التائهين على دروب الغفلة العاتية والضياع المقيت!!

﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾[الأنبياء: ٥٩] آلهة تعجز كلَّ العجز عن الدفاع عن نفسها!! أولاً يكفي ذلك لإيقاظ العقول من سباتها؟ ولكن القوم في غفلتهم سادرون ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فالذي حطَّم الآلهة التي هم لها عاكفون: هو في رأيهم ـ بصيغة الجزم والتوكيد ـ من الظالمين في صنيعه هذا.

وزحفت المخاطر أكثر وأكثر على الرسول الذي يواجه التحديات بإيمان ورباطة جأش؛ فالذين سمعوه يقول:﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ كشفوا عن اسمه أمام القوم ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾[الأنبياء: ٦٠].

ولكلمة «فتىً» هنا إيحاءاتها فيما لاحظ من سمعوه يقسم باللَّه على كيد الأصنام: من حزم وصدق عزيمة وقوة فاعلة، لا يعوزها الإقدام والتنفيذ!

وهنيئاً لشبابنا، وهنيئاً للأمة هؤلاء الشباب، حين يصلون أسبابهم بأسباب هؤلاء الرسل الشباب عليهم السلام؛ إذن لهانَ عليهم البذل والإقدام، حيث يلجأ ضعاف النفوس إلى الإحجام، ولكانوا بإيمانهم وشجاعتهم الأدبية: أقدر على تخطي العقبات من داخل النفس ومن خارجها، يوم تملأ العقبات طريق الشاب المؤمن المصدِّق، بما فيها من حلاوة ومرارة، ومن رغَب ورهَب.

وأُمر بإبراهيم فأُحضر على رؤوس الأشهاد في الملأ الأكبر بحضرة الناس كلهم. ﴿ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[الأنبياء: ٦١].

وعلى عكس ما يتصوَّر من رهبة المتهم التي تبعث على القلق المزعج والاضطراب الذي قد يعسر وصفه في مثل هذه الحال!؟ التهمة بالغة الخطورة!! انقضاض على الآلهة، وجعلها جذاذاً إلا كبيراً لهم، وعبّاد لهذه الآلهة عاكفون عليها: أعمت بصائرهم الغفلة، والتهبت نفوسهم بنار الحقد والانتقام. وما على سدنة الآلهة المنتفعين المعطَّل إدراكهم تحت وطأة هذا الانتفاع، إلا أن يشيروا إلى القطيع التائه في ظلمات الجهالة والتقليد الأعمى.. حتى ينهال على إبراهيم بأسباب الموت.

ولكن إبراهيم عليه السلام كان ـ بحضور قلبه وصدق توكله على اللَّه ـ في معزل عن هذا كله؛ فهو في أعماق نفسه ـ وقد اتجه بشراشره إلى اللَّه ـ همُّه أن تنتصر دعوته، وأن ترتفع لعقيدة التوحيد راية!

لقد رآها مناسبة عظيمة، وغنيمة تعز على الوصف: أن تتاح له فرصة الدعوة المستوفية شرائطها إلى اللَّه، وإقامة الحجة القاطعة على هؤلاء العاكفين بغفلة وعماية على التماثيل في ملأ من الناس وعلى رؤوس الأشهاد، دون رادع من داخل نفوسهم أو من خارجها.

أما ما يكون وراء ذلك: فالرسول الشاب المستعلي بإيمانه واستعذابه الموت في سبيل اللَّه.. قد أخلص دينه وأسلم وجهه لرب العالمين حنيفاً مسلماً جافياً للشرك والمشركين، وليكن بعد ذلك ما يكون.

وإلى أن نلتقي في ظل الكلمات الهاديات النيرات في كتاب اللَّه على مزيد من الاستنارة بهدي المعلم القرآني فيها: أود التذكير بأن البناء المتوازن السليم قد يكلف الكثير من الجهد والوقت وغيرهما، ولكن ثمراته أكثر وأوفر.

وقد تكون تنمية طاقات الشباب الخيِّرة المكينة ـ بمنهجية وتساوق مع سنن اللَّه ـ على هدي سير هؤلاء العظماء حقاً.. عملية شاقة، ولكنها عملية صاعدة تمثل حجر الزاوية في تحقيق الآمال، وهي طريق نيِّرة نقية من الشوائب لغاية نيِّرة لا تعوزها مقومات الرفعة والكمال!

ولم يكن عبثاً أن يُعنى القرآن ـ وهو كلام اللَّه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ بإبراز هذا الحدث الجلل، ودعوة الإسلام يومذاك تواجه على طريق البناء الأمثل الخليِّ عن مؤثرات الجاهلية والشتات: ما تواجه من العقبات والمكاره!! فهل نعقل أبعاد ذلك ـ والحال هي الحال ـ اليوم؟!

ومن الخير على طريق الاعتبار المجدي: أن تذكر الأمة دائماً: أن معالم الهداية في الكتاب والسنة لم تدع عذراً لمتقاعس أو متهاون، والفتن التي تطرق أبوابنا صباح مساء، لا بد لها ـ بعد الإيمان ـ من عزيمة تقهر ـ بعون اللَّه ـ الوهن، وتقضي على أسبابه من حب الدنيا وكراهة الموت، واللَّه المستعان.

واقعة إبراهيم مع قومه والبناء

« ٤ »

ما زلنا مع المنار الهادي في كتاب اللّه عز وجل فيما قصَّ علينا من أنباء إبراهيم عليه السلام مع قومه، وما جمعوا له، ليتبينوا ما إذا كان هو الذي فعل بآلهتهم ما رأوا آثاره، من تحطيمٍ جعلها جذاذاً متناثرة هنا وهناك. وقد أشرت من قبل ـ وهذا ما يستوقف الناقد البصير ـ إلى أن إبراهيم عليه السلام وجد اللقاء مع جمهور الناس مناسبةً تمكِّنه مرة أخرى من عرض دعوته المباركة إلى التوحيد، ونبذِ عبادة الأصنام التي كانت تماثيل صنعوها بأيديهم، الأمر الذي جعله ـ بعون اللّه ـ يستعلي على الخوف وما يمكن أن يلد التهديدُ والوعيدُ.

وعلى ساحة من سلامة التصور، والتصميم على المتابعة حتى النهاية: تابع الرسول الشاب رحلته مع القوم بعزم المؤمن وقوة شكيمة الداعية. وعلى أعين الناس ورؤوس الأشهاد كان اللقاء وجرى الحوار الذي نشهده في الآيتين التاليتين: ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾[الأنبياء: ٦٢-٦٣].

إن جَوَاب إبراهيم عليه السلام الذي بُدئ بكلمة (بل): يدل على أن إبراهيم لم يفهم من السؤال استفساراً، ولكن فهم منه طلبَ الاعتراف بأنه هو الذي جعل تلك الأصنام جذاذاً، فكأنه قال: لست أنا الفاعل، ولكن الفاعل كبيرهم هذا؛ لقد أراد إبراهيم عليه السلام في هذا الحفل العظيم أن يقيم الحجة عليهم، ويكشف عن شدة جهلهم، وقلة عقلهم في عبادة هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع؛ فهي لا تملك أن تجلب لنفسها النفع أو تدفع الضر؛ فكيف يطلب منها شيء من ذلك؟

والواقع أنه ـ عليه السلام ـ بتوجيه الاتهام والدفاع هذه الوجهة: وضعهم في دوامة من الحيرة!! إن العقل السليم يقضي أن الذي فعل تلك الفعلة كبيرهم، وما داموا آلهة تعبَدُ وتُقَدَّمُ لها القرابينُ ويُطلَب منها جلب النفع ودفعُ الضرِّ، فاسألوهم عن هذا الذي حصل بهم إن كانوا ينطقون.

وظل﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾[الأنبياء: ٦٣] رمز سلطان الوعي عند المؤمن في مواجهة الانحطاط الفكري والجاهلية الجهلاء.

هكذا كان الفتى إبراهيم عليه السلام، عنوان الصدقِ في تبليغ دعوته وإعلائها في الناس، عنوان الوعي، والشجاعة الفاعلة التي تزين تصرفات المؤمن؛ لما أن دعوة الحق ملكت عليه زمام نفسه.

أما القوم: ففي غمرة الحيرة، رجعوا إلى أنفسهم بشيء من الملامة والتأنيب من أجل أنهم لم يحترزوا لآلهتهم من الأذى ولم يحرسوها مما قد ينالها من الاعتداء، واعترفوا بأنهم هم الظالمون بتركهم لها مهملة لا حافظ عندها ذلكم قوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[الأنبياء: ٦٤].

وإذا تأملنا الواقعة من منظور إنساني: وجدنا أن حجة إبراهيم عليه السلام لم يُفقدها قوتها أن قومه ركبوا رؤوسهم وظلوا ساردين في متاهة الضلالة والعِناد.

فالذي قاله ـ جزاه اللّه عن الإنسانية كل خير ـ يظل حجة قائمة على رؤوس كل أولئك الذين يُهملون عقولهم، وينظرون إلى الحقيقة بعيون الآخرين، أو من منطلق التقليد الأعمى البحت؛ إنه قال: ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾[الأنبياء: ٦٣] والواقع أنهم لا ينطقون، وقد نالهم الأذى فلم يملكوا لأنفسهم دفع الضر عنها، ولا تحويله قيد أنملة؛ فما هي النتيجة التي يفترض أن يصل إليها العقل بعد هذه المقدمات؟ ليس إلا الحكم الجازم بخبال من يعكف عابداً لتلك التماثيل.

وإذا تحوّلنا إلى واقعنا اليوم: وجدنا أن ما صنعه إبراهيم عليه السلام أنموذجاً لحراسة الحقيقة وإقامة الحجة مرحلة بعد مرحلة، ودليل واضح على أن الذين يجنحون إلى الباطل في خاتمة المطاف، إنما يجنحون إليه اتباعاً للهوى، وعناداً بارداً يهوِّن من شأن صاحبه؛ لأنه لم يرتفق بالعقل في الوصول إلى نتائج سليمة تولِّدها مقدمات سليمة، صورة عن سلامة البناء الفكري.

ويظلُّ العناد آخذاً بخطام العاكفين على الأصنام، ويتبدى الأمر دفاعاً عن مواقف مهما كان شأنها، لا نُشداناً للحقيقة وتحرياً للصواب، فكان منهم ما نجده في قوله تعالى:﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾[الأنبياء: ٦٥] وإذا كانوا لا ينطقون فكيف يقول لهم إبراهيم: سلو هم إن كانوا ينطقون، مع علمه اليقيني أنهم والبُكْم سواء؛ لقد أقاموا عليه الحجة بزعمهم واستأنفوا نقلة جاهلة أصبحت بديلاً لصحوة عقلية تحمل على الإضراب عن الخطأ المهلك بأن يقولوا: صحيح أن من لا يستطيع النطق ولا أيَّ شيء من مؤشرات الحياة: ليس جديراً أن يُعبَد.

صلى اللَّه وسلم وبارك على إبراهيم الذي رسم لمن يأتي بعده الطريق التي تحفظ على الإنسان عقله ووجوده بعقيدة التوحيد، وكشف عن عماية الضلالة التي يقع فريستها المعاندون، وكان صدقه في الدعوة وصبره على مستلزماتها مثلاً يحتذى.

البناء.. وواقعة إبراهيم مع قومه

«٥»

كان من هداية المعلم القرآني فيما حصل لإبراهيم عليه السلام مع قومه: أن المواجهة لم يكن فيها أي لون من ألوان التكافؤ الظاهري: فإبراهيم يقف وحده داعياً إلى الحق ذائداً عن حوضه، والقوم كلهم حزمة مجمعة على الضلال، ولكن كان من توفيق اللَّه أن سارت المجادلة بينه وبينهم على طريق جعلتهم يعترفون أن أصنامهم لا ينطقون، وأن إبراهيم يعرف ذلك، فَلِمَ يطلب منهم أن يسألوهم؟

وفي لقاء فكري ينتسب إلى العقيدة، ولا يبارحه العمل العقلي، أفاد الخليل عليه السلام من هذا الاعتراف، ووجه إليهم مقولته التي نجدها ـ وهي على غاية القوة في الاستدلال ـ في هذه الآية الكريمة: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلايَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾[الأنبياء: ٦٦-٦٧].

ولعل قائلاً يقول: لم خاطبهم إبراهيم بهذا الأسلوب ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾. وكان من الممكن أن يكون الأمر على غير هذه الشاكلة!

الواقع أن من طريقة القرآن في القصص: أنه أحياناً يطوي بعض المراحل، ويضع أيدينا على المرتكزات الأساسية في موضوع القصة أو الواقعة؛ كالذي رأينا في قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾[الأنبياء: ٥٧-٥٨]. فالمرحلة بين التولي والجعل مطوية.

في ضوء هذا يمكن القول بأن صوراً كثيرة من العناد والصلف عند القوم قد طويت مع بعض المراحل ـ واللَّه أعلم ـ وهي صُوَرٌ تريك في كلمات إبراهيم غاية الغاية في الحكمة والموعظة الحسنة.

وإن كنت أرى أن خطوات الدعوة والحوار التي عرض لها القرآن الكريم: كافية

كل الكفاية في دلالتنا على الاتساق الجميل الواقع بين المقدمات والنتائج..

لقد أغرق القوم في غيهم مع الإصرار على العناد، وأعرضوا عن أن يكونوا مع الحجة التي بدت وهي كالشمس الطالعة في رابعة النهار؛ وعلى هذا: فليس كثيراً أن يقول لهم إبراهيم عليه السلام بعد كل الذي جرى:﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ و«أف» تفيد التضجر، إذ معناه أتضَجَّر، أما قوله: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أي أتظلون عاكفين على تماثيلكم تعبدونها مع قيام الحجة على أنها لا تنفع ولا تضُر، بل ولا تنطق ـ باعترافكم ـ فلا تعقلون هذا وترجعون إلى الحق والصواب؟! لقد حاول ـ عليه السلام ـ أن يثير فيهم ولو بقية باقية من الاحتكام إلى العقل السليم، فقال لهم: أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر، ولا يقيم عليه إلا متعنت تحكمه أهواؤه الفاسدة.

أجل ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾لقد أهملوا عقولهم حتى بدوا في تصرفاتهم كأنهم بلا عقول. والإسلام الذي يحرص كل الحرص على أن يحقق الإنسان الرسالة التي أنيطت به في الأرض، يرمي دائماً إلى أن تعمل الطاقة العقلية وغيرها بتناسق يمكِّن الإنسان من أداء هذه الرسالة. ومن أجل ذلك عرض علينا القصص القرآني واحدة من ثمرات إهمال العقل وتعطيل طاقته. وطلب منا الاعتبار.

والآن: ما الذي انتهى إليه الأمر بعد أن تأفف إبراهيم من قومه ومما يعبدون، وكاشفهم بأن ماهم فيه بعيد عن الصواب ودليل أنهم لا يعقلون؟

الذي انتهى إليه الأمر أنهم لجؤوا إلى أقرب طريق لنصرة وجهتهم ورأيهم، بل لنصرة آلهتهم: أن ينهوا حياة إبراهيم بالتحريق؛ نقرأ في ذلك قوله جل وعز: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾[الأنبياء: ٦٨].

يا لشؤم هذه الآلهة التي ينصرها عابدوها بتحريق المنكر لها الداعية إلى اللَّه.

ولا يبتئسنَّ من أولاهم اللَّه نعمة الدعوة إلى سبيله، وأكرمهم بالريادة على

طريقها.. فإن أسوتهم الرسل عليهم الصلاة والسلام. لقد أُلقي إبراهيم في النار ظلماً وعدواناً، ولكن كان بقوة إيمانه: راضياً فرحاً بفضل اللَّه أن طوَّقه كرامة أن تستهدف حياته في سبيل عقيدة التوحيد. وكان اللَّه في عون إبراهيم عليه السلام إذ جعل النار المحرقة حسب ارتباط المسببات بالأسباب: برداً وسلاماً عليه ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾[الأنبياء: ٦٩] وكانت قدرة اللَّه أقوى من كيدهم وما بيتوا لمن أراد إنقاذهم من وهدة الضلالة وهدايتهم إلى الصراط المستقيم ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾[الأنبياء: ٧٠].

أجل لقد ردَّ اللَّه ما أرادوا من الكيد بإبراهيم بإحراقه في النار إلى نحورهم، فجعلهم الأخسرين بأن فوَّت عليهم إمكانية أن يحترق في النار التي هيؤوا لها من أسباب الاشتعال والالتهاب الشيء الكثير.

وهذا اللطف بإبراهيم ظهر بتخلف المسبب عن السبب في هذه الواقعة؛ فاللَّه الذي جعل بحكمته تلازماً بين النار والاحتراق: هذا الذي جعل التلازم يتخلَّف بين النار وجسم إبراهيم عليه السلام، وسبحان من له الخلق والأمر الذي قال: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾.

وهكذا اعتبر القرآن معاندي إبراهيم الأخسرين؛ لأن مصادرة جسم إبراهيم، وإلقاءه في النار، ليس هو النصر على صعيد العقيدة والفكر؛ فإذا ضُمَّ إلى ذلك أن النار لم تفعل شيئاً في جسمه؛ بل كانت برداً وسلاماً ـ على غير المألوف قبل خرق العادة من قبل خالقها سبحانه ـ كان هذا أدلَّ على أحقية ما يدعو إليه، وأن اللَّه الذي فطر السماوات والأرض، ووضع للحياة والكون والإنسان قوانين تنظم مسيرتها والعلاقة بينها، وأنه القادر على خرق تلك القوانين لأنه واضعها: هو الجدير بالعبادة والإفراد بالألوهية، لا تلك الأصنام التي لم تملك دفع الضر عن أنفسها بالتحطيم والشرذمة.

وويل للذين لا ينتفعون بالآيات والدلائل، وهنيئاً لدعاة الإيمان الصابرين

الشجعان، الذين هم بحق ركائز البناء المحكم القويم في جسم الأمة، وحراس الحقيقة في المجتمع؛ فالذين لا ينتفعون بالآيات ويغلقون عقولهم فيعطلونها عن البحث والنظر: هم بحق ركام مؤذٍ على طريق الدعاة إلى اللّه، البناة الحقيقيين للقاعدة الصلبة في فكر الأمة، وتطلعاتها المشرقة إلى إقامة بنية حضارية سليمة، فضلاً عن سلوك السبيل التي تصل بالإنسان ـ أن لو أخلص في حمل الأمانة ـ إلى ما يسعد في الدنيا، ويحقق الأمن يوم النشور، بعيداً عن الاكتفاء بالتكديس المادي الذي لا يغني وحده من الحق شيئاً.

مع إبراهيم عليه السلام.. في طريق البناء ووضوح الرؤية.. والتساوق مع السنن

«٦»

لا يخفى على الناظر المتدبر لآيات الكتاب الكريم ما جاء في شأن إبراهيم عليه السلام مع قومه، وما حمل ذلك من دلالات: كان واحداً من المعالم القرآنية التي أعطت الكثير الكثير على ساحة الصراع بين الحق والباطل، الحق المتمثل في عقيدة التوحيد والتوجه إلى اللّه بالعبادة والدعاء، والباطل المتمثل في اتخاذ أصنام صنعها الإنسان بيده آلهة يعبدها من دون اللّه.

ومن الدروس التي يعوز العاملين توافرها والانتفاع بها على طريق البناء الذاتي للأمة، وتنمية روح الإقدام على نصرة الحق عند الفرد والجماعة: ما يَرى الناظر المتدبر في الآيات من سماتٍ تميز بها تحرك إبراهيم عليه السلام بوصفه داعياً يدعو إلى اللّه، ويواجه تحديات تقوم على موروثات جاهلية ليست من الحق في قليل ولا كثير.

فإبراهيم عليه السلام على غايةٍ في وضوح الرؤية فيما يريد. انظر إلى قولته الصائبة الشجاعة في عكوف قومه على عبادة الأصنام وتسويغ صنيعهم الهابط بأنهم وجدوا آباءهم لها عابدين:﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾[الأنبياء: ٥٤].

وهكذا يجب أن يكون من وضعته الأقدار على طريق الريادة في بناء كيان الأمة الذاتي، والعمل على أن يكون ما لديها من طاقات بشرية ومادية في نماء متصاعد؛ فوضوح الرؤية أمر ضروري لكيلا يُداخل المسيرة عبث أو فوضى وفضلاً عن المتابعة.

والناظر في الرحلة التي قطعها ـ عليه السلام ـ بين بدء دعوة قومه إلى التوحيد وإنكاره عليهم عبادة تماثيلهم التي لها يعكفون وحتى إلقائه في النار، نجد أن إبراهيم كان مع سنن اللّه الكونية في الأخذ بالأسباب.

فإلى جانب وضوح الرؤية: يقينه بصدق ما يدعو إليه، ومنهجية حواره القوم في تبيان الحق من الباطل، وصبره على إقامة الحجة عليهم مرحلة بعد مرحلة.

أما صموده في وجه الباطل ـ وهو وحيد لا معين له من بينهم ـ ومصارحتهم بالحقيقة ونذر الشر تتطاير من أعينهم: فالأمر أوضح من أن نبدئ فيه ونعيد.

وما أعظمه درساً بليغاً نعالج فيه كثيراً من الأمراض على ساحة الواجب ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾[الأنبياء: ٥٦].

وتنمو عنده صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم مشاعر القدرة على المواجهة ـ لأن قوته من قوة اللّه، واستعانته باللّه وحده ـ فتتلاشى أمام ناظريه حشودهم وما يجمعون، ويتضاءل الظلم، ويخسأ الظالمون، وينقلب وعيدهم في نفسه هشيماً تذروه الرياح، ويتعاظم الإيمان في نفسه ويتعاظم حتى يغدو عليه السلام وكأنه هو الدعوة أو كان الدعوة هو﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلايَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾[الأنبياء: ٦٦-٦٧].

وما أعظمها عبرة للعاملين البُناة الذين يحاول شياطين الإنس والجن ـ فيما يحاولون من التخذيل والتثبيط عن الخير ـ أن يدخلوا على قلوبهم اليأس: ما كان من نصرة اللّه لخليله إبراهيم عليه السلام حين اتخذ القوم قرارهم بتحريقه نُصرةً لآلهتهم وألقوه في نار أضرموها أشد الإضرام ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾[الأنبياء: ٦٩-٧٠].

على أن إبراهيم عليه السلام ظل على صحوه التام ومراقبته لله عز وجل، حتى حين ألقاه المنجنيق في تلك النار المستعرة حيث سقط فيها والشرر يتطاير مع الشهيق واللّهب المستعر المرتفع يتصاعد؛ فما زاد على أن قال بكل طمأنينة: «حسبي

اللَّه ونعم الوكيل» روى البخاري عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما أنه قال: «حسبي اللَّه ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقي في النار وقالها محمد عليهما الصلاة والسلام حين قالوا ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وذكر بعض السلف ـ كما روى الطبري ـ «أنه عرض جبريل لإبراهيم وهو في الهواء، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا».

لقد كان عدم تأثر إبراهيم عليه السلام بالنار بقدرة اللَّه حيث تخلف التلازم بين الإحراق والنار بإرادته تعالى، وكان بديل ذلك البرد والسلام، فكان هذا دليلاً جديداً وحجة أكثر من قاطعة على قوم إبرهيم ومن يسير على شاكلتهم: أن دعوة الرسل هي الصادقة بيقين، وأن اللَّه هو القادر الذي خلق الكون وسيَّره بحكمته، فربط المسبَّبات بالأسباب، وإذا أراد أن يتخلف السَّبب عن السبب في واقعة من الوقائع لحكمة أرادها: كان ذلك. وهنا كان الأمر معجزة لإبراهيم عليه السلام دلت على صدق رسالته وأحقية دعوته ولكن أين من يعقلون؟!

هذه هي الصورة بطرفيها: المعبودون من دون اللَّه، قطعوا إرباً إرباً، والنار التي ألقي فيها من جعل الأصنام جذاذاً كأن لم تغن بالأمس: كانت بردا وسلاما عليه، إنها لعبرة أيَّة عبرة لو كان في القوم من يعتبر.

أما بعد: فقد كانت رحلة إبراهيم عليه السلام في شبابه على طريق الدعوة وما زالت: أمانة في الأعناق، يدعو إلى المزيد من الانتفاع بها واجب الإخلاص لمسلك الأبرار الذين تحملهم الشجاعة في الحق وصدق توكلهم على اللَّه أن يكونوا نعم البناة على طريق التحويل إلى ما هو الأفضل والحمد لله.